مع المرزوقى فى عمود الشعر

للدكتور عبد الله الطيب

وأما عمود الشعر فمن العجب الزعم الدائر الآن أن هذه العبارة كانت اصطلاحاً . ولو كانت اصطلاحاً لكان النقاد قد أفردوا لها باباً أو فصلا . ولا تجد شيئاً من عند أحد منهم وحسبك شاهداً عمدة ابن رشيق وكتاب قدامة وأبى هلال والمثل السائر وإنما كان قولهم عمود الشعر كقولهم عمود كذا وكذا أى قوامه وما ينبغى أن يعمد إليه فيه وقولنا الصلاة عماد الدين ليس عماد الدين فيه اصطلاحاً للصلاة ولما ينبغى أن تكون عليه ولكنه وصف وتمثيل ، وكذلك قولك عمود الشعر ، قال الجاحظ فى الحيوان ج ٦ ـ ٧٢ ـ ٧٣ (الطبعة المصورة عن حيوان عبد السلام هارون) فى معرض الحديث عن الضب : « فأما ما ذكروا من أن للضب كذا وكذا فهذا من العجب العجيب ولم نجدهم يشكون وقد يختلفون ثم يرجعون إلى هذا العمود أ ـ ه أى عامدين إلى هذا القول المتقدم . وفى البيان والتبيين ج ١ ـ ص ٣٤٠ (« وكان خالد جميلا ولم يكن بالطويل فقالت له امرأته إنك لجميل يا أبا صفوان قال وكيف تقولين هذا وما فى عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه فقيل له ما عمود الجمال فقال الطول ولست بطويل ورداؤه البياض ولست بأبيض وبرنسه سواد الشعر وأنا أشمط ولكن قولى أنك مليح ظريف « ا ـ ه » . فالعمود والبرنس والرداء مع ما أضفن إليه ههنا لسن بإصطلاحات .

ولكن هذه الطريقة من التعبير وعمود من أساليب البيان أى شىء يعمد إليه العامد من أساليب البيان .

قال الجاحظ فى الجزء الرابع من الحيوان ص ٧٧ بمعرض تفسير قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » : أن شحم الخنزير مراد أيضاً بالتحريم (فلما كان اللحم هو العمود الذى يقصد إليه إلخ) وقالوا عمود

الرواية أى ما يُعْمَدُ عليه منها : وما يعمد إليه منها . والأَمثلة فى هذا المجال كثيرة وعلى هذا قولهم : (عمود الشعر) أى ما ينبغى أَن يعمد إليه منه فهذا ليس باصطلاح فعسى أَن يكف بعض القائلين من غربهم فى هذا المجال وليس ما ذكره المرزوقى فى مقدمته لشرح الحماسة بخارج فى جملته عما ذكرنا ؛ ذلك بأَن المرزوقى قد جعل لعموده أَبواباً فدل بذلك على أَنه وجه يعمد إليه ومقاصد يقصد نحوها إذ لا يحسن أَن نزعم أَن له أبواباً إلا على هذا المعنى ومن قال أَن العمود يدل على الخيمة والخيمة لها أبواب فقد تكلَّفَ والمرزوقى رَحمه اللهُ مِمَّن يتكلف غير أَنه لا يبلغ به ذلك هذا الحد . وقولهعمود الشعر المعروف عند العرب أَشبه بالمعنى الذى قدمناه أَى مقصد الشعر المعروف عند العرب . وإليك بعد أَهم ما قال :(فالواجب أَن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف[1] عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ولتعرف مواطئ أَقـدام المختارين فيما اختاروه ومراسم أَقدام المزيفين على ما زيفوه ويعلم أَيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع . وفضيلة الأَتى السمح على الأَبى الصعب فنقول وبالله التوفيق .

« إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته . وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة فى الوصف – ومن اجتماع هذه الأَسباب الثلاثة كثرت سوائر الأَمثال . وشوارد الأَبيات – والمقاربة فى التشبيه والتحام أَجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافيـة حتى لامنافرة بينهما فهذه سبعة أَبواب هى عمود الشعر . ولكل باب معيار . فمعيار المعنى أَن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فإذا انعطفت عليه جنبتا القبول والاصطفاء مستأنساً بقرائنه . خرج وافياً وإلَّا انتقص بمقدار شوبه ووحشته . وعيار اللفظ

---

(١) أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى المتوفى ٤٢١ هـ – مقدمة شرح الحماسة الطبعة الثانية – القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م ص ٨ – ١١ – القسم الأول .

الطبع والرواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم . وهذا فى مفرداته وجملته مراعى لأن اللفظة تستكرم بانفرادها فإذا ضامها مالا يوافقها عادت الجملة هجيناً . وعيار الإصابة فى الوصف ، الذكاء وحسن التمييز ، فما وجدناه صادقاً فى العلوق مازجاً فى اللصوق يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه فذاك سيماء الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : فى زهير (كان لايمدح الرجل إلا بما يكون للرجال) فتأمل هذا فإن تفسيره ماذكرناه . ومعيار المقاربة فى التشبيه الفطنة وحسن التقدير فأصدقه مالا ينتقض عند العكس ، واحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكها فى الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة إن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس . وقد قيل أقسام الشعر ثلاثة : مثلٌ سائر ، وتشبيه نادر واستعارة قريبة وخيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن ، الطبع واللسان ، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده ، ولم يتحبس اللسان فى فصوله ووصوله بل استمرا فيه واستسهلاه بلا مِلَال ولا كِلَال ، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت والبيت كلمة تسامتا لأجزائه وتقارناً وإلَّا يكون كما قيل فيه :

وشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرّق بَيْنَه
لِسَان دَعَى فى القريضِ دخيل

وكما قال خلف :

وبعض قريض القوم أولاد عِلَّةٍ
يكد لسان الناطق المتحفظ

وكما قال رؤبة لابنه عقبة وقد عرض عليه شيئاً مما قاله فقال :

قد قلت لوكان له قران

وإنما قلنا « على تخير من لذيذ الوزن » « لأن لذيذه يطرب الطبع لإيقاعه ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه واعتدال نظمه ولذلك قال حسان :

تغن فى كل شعر أنت قائله
إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وعيار الإستعارة الذهن والفطنة . وملاك الأمر تقريب التشبيه فى الأصل حتي يتناسب المشبه والمشبه به ، ثم

يكتفى فيه بالاسم المستعار لأنه المنقول عما كان له فى الوضع إلى المستعار له . وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدربة ودوام المدارسة فإذا حكمنا بحسن التباس بعضها ببعض لا جفاء فى خلالها ولا نبو ولا زيادة ولا قصور ، وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعانى قد جعل الأخص للأخص والأخس للأخس ، فهو البرئ من العيب ، وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوفها المعنى بحقه واللفظ بقسطه وإلّا كانت قلقة فى مقرها مجتلبة لمستغن عنها . فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبنى شعره ، عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجعلها فبقدر مهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن .

قد ترى أن المرزوقى ادعى الإجماع على هذا الذى ذكر أنه العمود المعروف عند العرب فأفاد بهذا أن العهود إليه هو جودة الشعر وقد اشرك معه ما يقع من الأمثال نثراً كما ترى . وهو بعد مما يشرك النثر والخطب وضروب الكتابة فى كل ما يعمد إليه من جودة التجويد فى الشعر إلّا الوزن والتقفية ، فلو كان مراده . بعمود الشعر إصطلاحاً دالا على أمر معين متعلق بالشعر لكان اكتفى بالوزن والقافية ثم جعل ما يلى ذلك وسائطَ وأطرافاً وعناصر وائتلافات كما صنع قدامة . ثم إن هذا الذى ادعى له المرزوقى الإجماع ليس خاصاً بالعرب وحدهم إلّا التقفية — إذ هو يصدق مثلا على شعر كثير من غيرهم من الأمم . إذ هذه الأمور التى ذكرها إنما هى أبواب الجودة والبلاغة ولا يعقل أن يكون قولهم عمود الشعر اصطلاحا ثم يكون من بعد لا مدلول له إلّا البلاغة والجودة .

هذا ولو تأملت الأشياء السبعة التى ذكرها أبو على المرزوقى رحمه الله وجدتها كلها راجعة إلى ما ذكره الجاحظ وابن قتيبة وقدامة : الشرف من ابن قتيبة وأسبق وكذلك أمر اللفظ والمعنى منه ومن الجاحظ والالتحام والالتئام من نظم الجاحظ واقتضاء اللفظ والمعنى بعد تشاكلهما للقافية من قدامة . وقد يعلم القارئ الكريم أن قدامة كره أن يستخرج ستة ائتلافات

من عناصره الأربعة وزعم أن القافية داخلة في مدلول اللفظ . ثم كره أن يجعل ائتلافاته ثلاثة وهو يعلم أن ائتلافات العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب) من امزجة اربعة :

(البلغم والدم والسوداء والصفراء) فلعله ـ والله أعلم حرص على أن تكون امتزاجات ائتلافاته أربعة فجعل القافية ائتلافاً خاصاً مع المعنى ومثل لما يعاب منه بقول أبي عدى القرشي :

ووقاك الحتوف من وارث وا
ل وأبقاك صالحاً ربُّ هود

ولعل الرزوقي رحمه الله جعل أبوابه سبعة (ومما يحمد له أنه لم يَدّعِ في ذكرها ولا معرفتها لنفسه سَبْقاً) للتبرك بعدد السبعة . إذ هي كما ذكرها أكثر من سبعة . ماذا كان عليه لوجعلها اثنى عشر باباً كما وردت في سياقها فإن الاثنى عشر عدد فيه بركة كما فيه مراعاة لأهل الطبيعة والفلك إذ البروج اثنا عشر :

١ ـ شرف المعنى .

٢ ـ وصحته .

٣ ـ وجزالة اللفظ .

٤ ـ واستقامته .

ولا يخفى أن الصحةَ غير الشرف رقد مزجها في معياره بالشرف مزجاً متكافئاً والجزالة غير الاستقامة وليته فسر انا الجزالة إذ مدلولها عند المتأخرين أخفى مما كان عند المتقدمين .

وفي زماننا هذا هو أشد خفاءً مما كان عليه في المئة الخامسة .

أما الاستقامة فمن ضمن صفة التركيب النحوي حسنا وقبحاً وهذا أمر وفاه سيبويه حقه في مقدماته وفي سائر الكتاب من بعد . وزعم عبد القاهر أن سيبويه إنما ألم بذلك إلماماً وادعى لنفسه فضيلة السبق والاستيفاء ولعل نصيبه من ذلك للمتأمل نسبي . ولله دَرّ ابن رشيق إذ جاء بالرشيق

---

(١) إن شئت رددت الشرف إلى الكاتب المجهول لونقينس ورب زاعم أنه كان عربيا من أهل تدمر زمان ملكها فتأمل .

ذى السبق الدقيق ولم يدع لنفسه من سبق أو ابتكار إلا الجمع والتأليف[1] .

٥ ــ والمقاربة فى التشبيه ــ وهذا مما لا ينفرد به طلب التجويد فى الشعر دون النثر .

٦ ــ التحام إجزاء النظم والتئامها .

٧ ــ على تخيير من لذيذ .

٨ ــ الوزن .

هؤلاء الأبواب الثلاثة من (٦ إلى ٨) جعلهن المرزوقى باباً واحداً وجلى أن النظم (ولا يراد به الوزن) باب كما الوزن باب كما اختيار الوزن باب ــ على أن للمرزوقى وجهاً فى هذا الذى لجأ إليه من جعلهن باباً واحداً على ما تكلفه من ذلك وسنذكر من ذلك بعد قليل إن شاء الله .

٩ ــ مناسبة المستعار منه للمستعار له . وهذا كالتكرار لما تقدم من المقاربة فى التشبيه غير أن له ما يبرر جعله باباً مفرداً .

١٠ ــ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية .

فهذه عشرة أبواب . وقد يقال إن مشاكلة اللفظ للمعنى ينبغى أن تعد باباً هو وجه إلّا أن فى ذلك كالتكرار للبابين أو الأربعة الأبواب الأول .

وقد تصير الأبواب اثنى عشر بجعل هذا الباب ثلاثة أبواب كما جعله قدامة إذ هو من قدامة مأخوذ وذلك أن يقال :

١٠ ــ مشاكلة اللفظ للوزن .

١١ ــ مشاكلة المعنى للوزن .

١٢ ــ مشاكلة المعنى للقافية ولايخفى

---

(١) وادعى حازم سبقا وأغار على موسيقا الفارابى فى مواضع منها تعريفه للشعر حيث قال (ص ٨٩ من منهاج البلغاء طبع تونس بتحقيق الحبيب بن خوجة ١٩٦٦ م الشعر كلام مخيل موزون مختص فى لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك ويكثر حازم من استعمال (الأقاويل) وهى من ألفاظ الفارابى القرآنية كثيرة فى موسيقاه الكبير وأهل المصر مولعون بحازم والجرجانى الثانى والمرزوقى ولا ننكر لهم فضلا إلا أن كون هذا الولع (موضة) لا يخفى وأحسن حازم فى أمر الربط والوحدة حيث استشهد ببائية أبى الطيب ، وفى أمر ألوان الأوزان وتوسع فيه شيئا بتنوع من الشرح لما جاء عند ابن رشيق وهو قول الخليل وإضافته التخييل على التعريف عناء لأنه رغم أنه فى اللفظ والوزن والقائل والسامع فلو لزم التعريف المعروف لكان له احزم والله أعلم .

تكلف المرزوقى حيث ضم اللفظ إلى المعنى وجعلهما معا يقتضيان القافية اقتضاءً شديداً ، فزاد على التكلف الذى جاء به قدامة ؛ تكلفاً آخر ، وعبارة قدامة فى مقدماته : « إلَّا أنى نظرت فوجدتها (يعنى قدامة القافية) من جهة ما أنها تدل على معنى لذلك المعنى الذى تدل عليه ائتلاف مع سائر البيت فأما مع غيره فلا لأن القافية إنما هى لفظة مثل لفظ سائر البيت من الشعر ، ولها دلالة على معنى لذلك اللفظ أيضاً والوزن شىءٌ واقع على جميع لفظ الشعر الدال على المعنى فإذا كان ذاك كذلك فقد انتظم تأليف الثلاثة الأُمور الأُخر ائتلاف القافية أيضاً .إذ كانت لاتعدو أنها لفظة كسائر لفظ الشعر المؤتلف مع المعنى فأما من جهة ما هى قافية فليس ذلك ذاتاً يجب بها أن يكون لها به ائتلاف مع شىءٍ آخر إذ كانت هذه اللفظة إنما قيل إنها قافية من أجل أنها مقطع البيت وآخره وليس أنها مقطع ذاتى لها وإنما هو شىءٌ عرض لها بسبب أنه لم يوجد بعدها لفظ فى البيت غيرها وليس الترتيب أن لا يوجد للشىء تال يتلوه ذاتاً قائمة فيه ، فهذا هو السبب فى أنه لم يكن للقافية من جهة ما هى قافية تأليف مع غيرها .

مما يبرر التلاحم فى النظم واختيار الوزن لذيذاً ثم الوزن نفسه كل أُولئك الثلاثة باب واحد أن المرزوقى فيما نرى أراد أن ينبه على أن الكلام له نظم يلزمه عند من يريد تجويده أن يكون ملتحماً ملتئماً من حيث هو نظم أُسلوبى صياغى. وما نرى إلَّا أن الجاحظ لفق نظريته فى النظم من قصة الإعجاز التى يقول بها كل معلم وقصة الخلق التى هى مذهب عند المعتزلة . فابتعد عن مذهبهم ودنا مما كان عليه أهل السنة ومهد بذلك لابن الباقلانى وعبد القاهر وغيرهما تمهيداً هذا ثم كأن المرزوقى أراد أن ينبه أيضاً على أن النظم بعد أن يلتحم ويلتئم فى نفسه التحاماً والتئاماً آخر مع الوزن لامن حيث إن الوزن إطار تنحصر فيه كلمات النظم والقول بنحو من هذا من اغلاط النقد البنيوى الذى عنده أن النص هو الجوهر وهو كل شىء وليس البيان إلَّا إياه وهو مجرداً هكذا إن هو إلَّا جنازة كائن البيان الحى ذى الروح والجسد معاً ، ولكن من حيث

ان الوزن إيقاع ذو تعبير من عند ذات طبيعته الإيقاعية فالتحام النظم ينبغى أن يذوب فى هذا التعبير الإيقاعى ويتحد معه ويكون جسدًا حيًّا مع روح ذى قوة وإحساس حى ووجود .

فجعله هـــذا باباً ثالثاً كما ترى .

وأحسب أن المرزوقى رحمهُ اللهُ لو كان قالَ على تخير الوزن أن كان من صفة الوزن وحده كان الأمر بابين ولكنه لابد فيه مراعاة مشاكلة اللفظ والمعنى والتحام النظم. فجعله هذا باباً ثالثاً كما ترى . وأحسب أن المرزوقى رحمه الله لو كان قال على تخير الوزن أو من الوزن كان ذلك أجود ولكنه أتى من شدة اتباعه لقدامة حيث زعم أن الوزن السهل العروض يستحسن الشعر من أجله وإن خلا من أكثر نعوت الشعر كقول حسان :

ما هاج حسان رسوم المقام

ومظعن الحى ومبنى الخيام

وقال قدامة نحواً من هذا فى نعت اللفظ الذى عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وإن خلت من سائر نعوت الشعر . وقد اتبع قدامة ابن قتيبة حيث ذكر ماجاء لفظه وحلا وما يختار لوزنه . وفى الذى ذكره المرزوقى من التحام أجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن مشابه من حديث كلردج عن الإرادة والوجدان من طريق الوزن وتوازن أشكال التعبيروالمجاز. هل اطلع كلردج على مقدمة المرزوقى أو خلاصة منها (لا تستبعد ذلك لما سبق زمانه من ترجمة حماسة أبى تمام ومعرفة أهل الاستشراق بها والله تعالى أعلم وفى حديث المرزوقى عن المعايير كلمة وغموض وسائر كلامه كما قدمنا راجع إلى الجاحظ وابن قتيبة وقدامة وهلم جرا . والأبواب السبعة أوضح من أن تذكر لها معايير تدل عليها وكلام النقاد عنها مستفيض وأحسب أن المرزوقى أعجبه لفظ عيار الشعر وقد استشهد بشىء من كلام ابن طباطبا فى المقدمة وذكر مع اسمه كنيته وكان به ذا إعجاب والله أعلم .

عبد الله الطيب
عضو المجمع من السودان